بيعة العقبة

بيعة العقبة - ١

يحكى كعب بن مالك – رضى الله عنه – فيقول : خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم – العقبة من أوسط أيام التشريق ، فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام سيّد من سادتنا وشريف من أشرافنا .

أخذناه معنا – وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا – فكلمّناه ، وقلنا له : يا أبا جابر ، إنك سيّد من سادتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً ، ثم دعوناه للإسلام ، وأخبرناه بميعاد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إيّانا العقبة .

قال : فأسلم ، وشهد معنا العقبة ، وكان نقيباً ، ونمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا لميعاد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى إذا مضى ثلث الليل؛ خرجنا من رحالنا نتسلل تسلّل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشّعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب، أم عمارة، إحدى نساء بنى مازن ، وأسماء بنت عمرو ، إحدى نساء بنى سلمة .

كان أول المتكلمين، العباس بن عبد المطلب، وكان يومئذ على دين قومه:

يا معشر الخزرج: إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عزّ من قومه ، ومنعة من بلده ، وإنه قد أبى إلاّ الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ،، فإن كنتم ترون أنكم وافون له. بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عزة ومنعة من قومه وبلده .

قلنا له: قد سمعنا ما قلت،فتكلم يا رسول الله،فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

فتكلم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب فى الإسلام، ثم قال: "أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم" .

(حديث حسن ؛ أخرجه أحمد وآخرون)

تمثّل بيعة العقبة انعطافة مهمّة فى تاريخ الإسلام والمسلمين، فقد مهدت لانطلاقة الإسلام، وتجاوز حدود مكة إلى آفاق جديدة يتاح له فيها التعبير عن نفسه، ومعرفة الناس به، ودخول مؤمنين جددٍ إلى ساحته، وتحوّله إلى قوة لها وجودها وكيانها، تؤمّن حياة المسلمين وتحميهم وترّ عنهم كيد الأعداء والمتربّصين بهم.

لقد بلغت معاناة المسلمين قبيل العقبة حدّاً كبيراً، فقد لاحقهم المشركون فى كل مكان وضيقوا عليهم وآذوهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، مما اضطرهم إلى الرحيل عن مكة فى أول الأمر، والتوجه إلى الحبشة ليحميهم حاكمها من ظلم المشركين من قريش.

وفى هذه البيعة، فإن عصراً جديداً قد بدأ، وتحوّلاً مهماً قد وقع، حيث انتقلت الدعوة والداعية من عصر إلى عصر، ومن مرحلة إلى مرحلة.

وقصة البيعة من القصص الطويلة نسبياً التى وردت فى الأحاديث النبوية الشريفة لذا حفلت بالأشخاص والأحداث والغايات..

إن الصحابى الجليل كعب بن مالك رضى الله عنه يحكى لنا القصة فى إسهاب منذ بداياتها حتى نهاياتها، فيحدّد أولاً زمن القصة الذى تمّ فى موسم الحج، والحج عبادة معروفة فى الجاهلية، ولكن الإسلام أعطاها ملامحها ومميزاتها الإسلامية، وفى موسم الحج تأتى الوفود من كل مكان وصوب إلى مكة المكرّمة لتطوف بالبيت العتيق، وقد جاء وفد أهل المدينة الذين واعدهم الرسول -صلى الله عليه وسلم- على اللقاء من أجل البيعة والنصُرة.. ويقدم لنا كعب بن مالك شخصية رجل مهّم وسيّد من سادات القوم فى وفد أهل المدينة الذين عُرفوا فيما بعد بالأنصار وهو "أبو جابر" عبد الله بن عمرو بن حرام؛ فيصفه بالسيادة والشرف، ورجل مثله لابد أن يكون مؤثراً فى قومه، وعامل حسم لأمور كثيرة، وهو ما جرى بالفعل، حيث دُعى أبو جابر للإسلام فأسلم وشهد العقبة.

كما يقدم لنا كعب بن مالك شخصية المرأة الأنصارية ممثلة فى نسيبة بنت كعب المعروفة باسم أم عمارة ، ولها فيما بعد تاريخ مضىء فى نصرة الإسلام والمسلمين ، وأسماء بنت عمرو السَّلمية ...وحضور المرأة فى بيعة العقبة ، له دلالته القاطعة على مشاركة المرأة المسلمة فى شئون المسلمين ، وقيامها بواجبها فى القضايا العامة ، وهو ما يرّد على مزاعم بعض المتحاملين على الإسلام ، وادعائهم بأن الإسلام يهمش المرأة ويقصيها عن المشاركة ، وأداء دور اجتماعى أو سياسى . لقد بايع الرسول -صلى الله عليه وسلم - نسيبة وأسماء مثلما بايع الرجال الذين وصل عددهم إلى ثلاثة وسبعين رجلاً من الأنصار ، فكان ذلك علامة قاطعة على دور المرأة المهّم سياسيا واجتماعيا ، ثم تبلور هذا الدور فيما بعد حين خرجت النساء إلى ميدان القتال للدفاع عن حوزة الدين ، وكان فى مقدمتهن نسيبة .

ويقدم لنا كعب بن مالك رضى الله عنه شخصية العباس بن عبد المطلب ، عمّ النبى - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يعلن إسلامه - والعباس فى هذه القصة يعضّد ابن أخيه ، ويستوثق له من جانب الذين يبايعونه من الأنصار ، ويؤكد لهم أنه لا يفرّط فى ابن أخيه، ولا يوافق على الاتفاق إلاّ إذا تأكد من وفائهم، ونصرتهم.. فأكد له القوم الوفاء والنصرة ، وطلبوا من الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن يتكلم ..

وكلام الرسول - صلى الله عليه وسلم - ينبىء عن شخصيته ودورها فى الحياة ..فهو الداعية إلى الله ، وهو المبلغ للوحى ..لقد تكلم فتلا القرآن ودعا إلى الله، ورغّب فى الإسلام وبايع الأنصار قائلاً : " أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم " . إنها مبايعة على الحماية التى تستدعى التضحية من جانب الأنصار.

بيعة العقبة - ٢

بعد أن بايع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أهل المدينة على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، أخذ البراء بن معرور بيده ، ثم قال : نعم ، والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعْنا رسول الله ، فنحن والله أهل الحرب ، وأهل الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابر .

فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالاً ، وإنا قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ !

فتبسم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم قال: "بل الدم الدم، والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم .

أخرجوا إلىّ منكم اثنى عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم " .

فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً : تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس .

قال كعب بن مالك : فلما بايعنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط : يا أهل الجباجب - والجباجب المنازل - هل لكم فى مذمم والصّبُاة معه قد اجتمعوا على حربكم ؟

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " هذا أزب العقبة . هذا ابن أزيب . استمع أى عدوّ الله ، أما والله لأفرغن لك". ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- " افضوا إلى رحالكم " .

....

يواصل كعب بن مالك - رضى الله عنه - روايته عن بيعة العقبة ، أحداثها وشخوصها وغاياتها ، فيقدم لنا استجابة أهل المدينة للبيعة كما تحدث عنها الرسول - صلى الله عليه وسلم - وطلب فيها حمايته كما يحمون نساءهم وأبناءهم، وكان ردّ الفعل الأول إيجابياً من خلال شخصية البراء بن معرور - رضى الله عنه -

حيث أقسم على حماية الرسول – صلى الله عليه وسلم – كما يحمون نساءهم " والذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعْنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فنحن والله أهل الحرب وأهل الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابر" . إن البراء بن معرور ، يمثل شخصية العربى فى وفائه بعهده وحميته للبذل والتضحية ، وهو يؤكد ذلك بقسمة الذى يعبّر فيه عن حماية الرسول – صلى الله عليه وسلم – كما يمنعون أزرهم – أى نساءهم . ويطلب المبايعة ويبدى مع القسم استعداده للحرب فهم أهلها وقد مارسوها وراثة جيلاً بعد جيل ، مما يدل على صدق البيعة ، وإخلاص أهلها فى الوفاء بما وعدوا واتفقوا عليه .

أما شخصية أبى الهيثم بن التيهان ، فتعترض الكلام والسياق بالسؤال عن المعاهدات التى بين الأنصار واليهود . إن الرجل يبدو متخوفاً من المستقبل ، حين ينتصر الرسول – صلى الله عليه وسلم – ويرجع إلى أهله ووطنه الأول (مكة) ، فيكون الأنصار عرضة لانقضاض اليهود عليهم ، والنيل منهم ، ويتمثل تخوف أبى الهيثم بن التيهان فى قوله: "يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال (يقصد اليهود) حبالاً ، (أى معاهدات واتفاقات) وإنّا قاطعوها، (أى سنقوم بإلغائها) فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك (أى أيدناك وتركنا اليهود)،ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتَدَعَنَا ؟! "

إن الخوف من المستقبل أمر مشروع ، وخاصة حين لا تكون هنالك أسباب ترتبط بصنع ملامحه ، ولذا كان تساؤل أبى الهيثم تساؤلاً مشروعاً ، يكشف عن شخصية واعية مهتمة بأمور قومها ومصيرهم .

أما شخصية الرسول – صلى الله عليه وسلم – فيتكشّف جانب جديد من جوانبها وهو الرحابة وسعة الصدر والثراء الإنسانى حيث يبتسم حين يسمع كلام أبى الهيثم بن التيهان . وبالإضافة إلى ذلك كله ، فإنه يؤكد على وفائه وإخلاصه لمن بايعوه ورّد الجميل إليهم تضامناً معهم ، واندماجاً فيهم، بل الدم الدم،

والهدم الهدم " أى ذمتى ذمتكم أو عهدى عهدكم ، وحرمتى حرمتكم ...والمقصود بالهدم ، الدماء المهدرة والمعنى ما هدمتم من الدماء هدمته أنا. أنا منكم وأنتم منى.. أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم .

إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يحرص على أن يطمئن معاهديه على المستقبل ويبين لهم مدى اعتزازه بهم "أنا منكم وأنتم منى" ، وليس بعد ذلك اطمئنان أو اعتزاز.

ومن ملامح الشخصية المحمدية فى هذه القصة الفذّة على التخطيط والتنظيم للسلم والحرب معاً ، مما صار نظاماً عاماً تعتمده الدول والمؤسسات فى عملها وحركتها ، فها هو – صلى الله عليه وسلم – يطلب من الأنصار أن يقدموا إليه مندوبين أو عرفاء أو نقباء ، يعين مندوباً لكل جماعة يُسأل عنها ويقودها ويبلغها ما يصل إليه من تعاليم ومطالب . وتلك لعمرى ، قفزة تخطيطية فى مجال القيادة والعمل ، تحكم الجماعات والجيوش ، وتيسر التعامل بين القاعدة والقمة .

وتظهر شخصية الشيطان الذميمة ، فى هذا الموقف التاريخى ، مصعوقة مما تمّ من بيعة ، لأنه يدرك أن هذه البيعة التى تمت فى الكتمان والسّر ، ستكون نقطة تحوّل تاريخية فى تاريخ الإسلام والمسلمين ، ومع أنه يصرخ بإعلان الخبر ، ويسىء إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – بوصفه مذمّما ، بدلاً من محمد وإلى المسلمين بوصفهم صُباة أى مرتدون، فإن الرسول -صلى الله عليه وسلم- يعرف اسمه "هذا أزب العقبة" ويصفه بالعداء لله ، ويقسم له : والله لأفرغن لك ، ويطلب من المبايعين أن ينصرفوا ويتفرقوا أى ارفضوا إلى رحالكم .

بيعة العقبة - ٣

بعد أن تمت بيعة العقبة ، وصرخ الشيطان غضباً ليعلن الخبر، طلب الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن يتفرق المبايعون ، وينصرفوا إلى رحالهم . قال له العباس بن عبادة بن نضلة : والله الذى بعثك بالحق ، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :

"لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم" قال: فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا، فلما أصبحنا غدت جلة قريش ، حتى جاءوا فى منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا . وإنه والله مامن حىّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .

قال:فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شىء، وما علمناه .

قال: وقد صدقوا لم يعلموه ، قال: وبعضنا ينظر إلى بعض ، ثم قام والقوم فيهم الحارث بن هشام المخزومى وعليه نعلان له جديدان . قال : فقلت له كلمة كأنىّ أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا : يا أبا جابر ، أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من سادتنا مثل نعلى هذا الفتى من قريش ؟ !

قال: فسمعها الحارث،فخلعها من رجليه،ثم رمى بهما إلىّ فقال:والله لتنتعلّنهما فأل.

قال: يقول أبو جابر، مه، أحفظت والله الفتى، فاردد إليه نعليه، قال : لا والله لا أردهما ، فأل والله صالح ، والله لئن صدق الفأل لأسَلُبَنَّهُ .

....

لا ريب أن بيعة العقبة التى تمت فى سرّية تامة ، آلمت الشيطان ألما عظما ، فصرخ ينادى أهل الجباجب أى المنازل ليعلنهم الخبر ، ويكشف السرّ ، مما جعل الرسول – صلى الله عليه وسلم – يأمر أهل البيعة بالانصراف ، حتى لا يراهم المشركون ، ولكن العباس بن عبادة ، وهو شخصية من شخصيات القصة التى بايعت النبى – صلى الله عليه وسلم – رأت ما قد يكون نوعاً من إيثار السلامة من جانب النبى – صلى الله عليه وسلم – فتقسم على النصرة " والله الذى بعثك بالحق ، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا" ...أى إن العباس بن عبادة بن نضلة ، يريد أن يقاتل أهل منى فى الغد ، تعبيراً عن الوفاء بالبيعة والتزاماً بها ، ولكن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يقول له:

"لم نؤمر بذلك وارجعوا إلى رحـــالكم" ، أى إن الأمر بالقتال لم يصدر حتى الآن ، ولم يأت به الوحى . لأن الأمر بالقتال لم يصدر إلاّ بعد الهجرة ، فى السنة الثانية منها ، وكانت بدايته غزوة بدر.

تتصاعد أحداث القصة حين يعلم مشركو قريش بالخبر عن طريق الشيطان "أزب العقبـــة" ، فيذهبون إليهم ، ويحتجون على البيعة لأنهم رأوهم يستخرجون صاحبهم (محمدا) من بين أظهرهم ويبايعونه على الحرب (حـرب قـريش) ، مع أن القوم لا يحبون محاربة أهل المدينة ، فمحاربتهم من أبغض الحروب إلى أهل مكة .

ولكن المشركين من أهل المدينة الذين جاءوا إلى الحج ، ولم يبايعوا النبى – صلى الله عليه وسلم – ولم يعلموا بأمر البيعة ، ينكرون الأمر تماما ، وهم صادقون فيما قالوا ، لأنهم لم يشاركوا فى البيعة ولم يأخذوا خبراً بها .

ومن الذكاء والطرافة ، أن كعب بن مالك أراد أن يشغل القوم عن الموضوع ، فاتخذ من لبس الحارث بن هشام المخزومى نعلين جديدين فرصة ليخاطب أبا جابر ويطلب منه متسائلاً: أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيّد من ساداتنا مثل نعلى هذا الفتى من قريش ؟

إن العرب كانت ترى فى النعال الجديدة فألاً حسنا يستبشرون به ، وقد أقر الإسلام الفأل الحسن ، بيد أن الفتى الحارث بن هشام المخزومى ، بادر بإلقاء النعلين إلى كعب بن مالك بعد أن خلعهما من رجليه، وقال: والله لتنتعلّنهما فأل . ولكن أبا جابر حسب أن الفتى غضب من مقولة كعب . فقال لكعب: أحفظت والله الفتى – أى أغضبته – فاردد إليه نعليه ، ولكن كعبا أصرّ على إبقائهما وعدم ردّهما بوصفهما فألاً صالحاً .

ولا ريـــب أن قصـــة بيعة العقبة ، تكشف عن أحداث متتابعة ومتصاعدة ، تؤكد على مسيرة الدعوة الإسلامية ومواجهتها للصعاب الجمة دون أن تفتر همة الداعية الأول – صلى الله عليه وسلم – أو يصيبه اليأس والإحباط . فبعد ثلاثة عشر عاماً ، وجد فيها المسلمون الأوائل ألوانا من الحصار والعذاب داخل مكة ، وجد الرسول – صلى الله عليه وسلم – أنه لابد من البحث عن بيئة جديدة تنمو فيها الدعوة وتتمكن ، فكانت بيعته لأهل المدينة فى العقبة رجالاً ونساءً ، واستعان على أمره بالسرّية والكتمان ، وكان وفّياً لمن عاهدهم حيث جعل نفسه منهم وهم منه ، وحين كشف الشيطان أمر البيعة ، فإن الرسول رفض مقاتلة قريش لأنه لم يؤمر بالقتال ، وكأن القتال لا يتم إلا بعد استعداد وتخطيط وتهيئة ووجود قاعدة أو أرض آمنة ينطلق منها المقاتلون المسلمون ..ثم تبيّن لنا القصة أن " الفـــأل " الحسن أو الفأل الصالح أمر مرغوب فيه ، فى ظل الكيد الذى يكيده الشيطان ، وتربص الأعداء بالمسلمين .

إن الدعوة إلى الله يجب أن تتم بالتخطيط ، والحكمة ، والموعظة الحسنة، وهو ما تحقق من خلال مقاصد بيعة العقبة وأحداثها ، وقد مهدت هذه البيعة للهجرة الكبرى إلى المدينة المنورة ، حيث تغيّر التاريخ ، وبدأت صفحة جديدة من صفحات انتصار الإسلام .